



د. رشيد وديجي

جامعة مولاي إسماعيل - مكناس - المغرب

## إشكالية حوار الثقافات في النص الرحلي "الذهب والعاصفة" لإلياس الموصلي نموذجاً

تعتبر رحلة "الذهب والعاصفة"<sup>1</sup> إلياس الموصلي<sup>2</sup> أقدم رحلة قام بها رحالة شرقي إلى الأمريكيتين الجنوبية والوسطى في النصف الثاني من القرن السابع عشر، وقد جاءت حسب نوري الجراح- محرر الرحلة- في الفترة التي شهدت فيها الفارة الأمريكية حمى بناء المستوطنات، والبحث عن الذهب والفضة، وانتشار العبودية، ونشاط ديوان التفتيش الكاثوليكي، وعمليات التنصير والتعذيب والإبادة التي مارسها التي مارسها المستعمرون الأسبان ضد أبناء القارة الأمريكية، والرحلة حافلة بالقصص، والمرويات، والوقائع حول ذلك.

وفي هذا الإطار، قسم نوري الجراح الرحلة إلى أربعة أجزاء بحسب مراحلها الجغرافية:

1. الرحلة الأوروبية، من بغداد إلى لشبونة
2. الرحلة الأمريكية: من مدريد إلى كاركاس
3. الرحلة المكسيكية: من تابوكا إلى مكسيكو
4. رحلة العودة: من مكسيكو إلى روما

يرى عبد الله إبراهيم أن "المركزيات تصاغ استناداً إلى نوع من التمثيل الذي تقدمه المرويات الثقافية (الدينية، والأدبية، والتاريخية، والجغرافية، والفلسفية، والأنتروبولوجية) للذات المعصمة بوجه النقاء الكامل والآخر المدنس بالدونية الدائمة، فالتمركز هو نوع من التعلق بتصوير مزدوج عن الذات والآخر، تصور يقوم على التمايز والتراتب والتعالي يتشكل عبر الزمن بناء على ترادف متواصل ومتماثل لمرويات تلوح فيها بوضوح صورة انتقيت بدقة لمواجهة ضغوط كثيرة... بذلك تكشف لنا الطريقة البارعة للسرود التي تنتظم حول حبكة دينية أو ثقافية أو عرقية مخصوصة، فتخضع كل عناصر السرد لخدمة تلك الحبكة التي تظل يقظة في إثراء تمجيد للذات وإفطار تبخيصي للآخر... تخفي درجات من التمثيل السردى الذي يتدخل في صوغ العلاقات الإنسانية، والمفاهيم الفكرية، والتصورات

الخاصة بالأنا والآخر"<sup>3</sup>.

تقودنا هذا الفقرة إلى الإجابة عن الإشكالية التالية: كيف جلى نص الرحلة من خلال مختلف الصور والحكايات، الحضور القوي للتمثيل السردى في حوار الثقافات أو صدامها؟

-1-

تشير الديباجة إلى الأبعاد الدينية (أي دفاعه عن الدين المسيحي) التي كانت دافعا قويا للرحلة، والامتنان لانتشاره في كل إقليم جديد، وما يؤخذ عليه أنه ليس هناك إشارة إلى الدين الإسلامي، بمعنى، أنه لا يفيد أن الرحلة لا يجعل من الحوار مع الدين الإسلامي ولا مع أي دين آخر من دوافع رحلته، بالرغم من أنه ينحدر من وسط أغلبيته مسلمين، وعدم إشارته إلى الولاة العثمانيين الذين حكموا بغداد، ولا عن خروجه من بغداد إلى روما، هل كان قسراً أم اختيارياً؟ وكذلك لا وجود للتقويم الهجري الإسلامي. دون إغفال اعتماده أسماء الشهور البابلية (شباط، وكانون الأول،...).

-2-

رغم حديثه عن المدن الإسلامية (حلب، القدس، بغداد،...،) ولكن ذات خلفية مسيحية، أضف إلى ذلك تركيزه على المواقع الدينية (الكنائس والأديرة) إذ يقول: "وبقيت في هذا البلد سبعة أشهر، وزرت جميع كنائسها وأديرتها"<sup>4</sup>، مع توظيفه لمصطلحات مسيحية (الكرزة، والتعميد، والدينونة).

وهناك إشارة كذلك إلى البركة التي حلت بالأرض بعد مجيء الأسبان، وحلول المسيحية في أمريكا حلواً مباركاً، نستشف ذلك من خلال المقاطع التالية:

" فلما حضروا المكان وجدوا الخابيتين مملوءتين دماً لا يوجد فيهما لا دينار واحد، فكل الذين كانوا حاضرين تعجبوا من هذه العجيبة، لأن عدالة الله ظهرت هكذا في

منديل على حسب شكواتهم"<sup>8</sup>.

وفي هذا الإطار، نعلم أن السكان الأصليين كانت لهم حضارة عريقة عاصرت حضارات بلاد الرافدين، ولم تقطع الأعراف الاجتماعية والثقافات الخاصة بهم إلا مع الغزو الإسباني الاستعماري للقارة.

-4-

هناك إشارتين إلى إحساس الرحالة بشرقيته فيما يلي: أولاً: تعبيره عن أسفه لأنه لم يعد له من شماس ( خادم الأسقف المسيحي) من أبناء جلدته يساعده في أعماله الكنسية إذ يقول: " ما وجدت أحداً من ملتي ومن أولادي بلادي، فصار عندي ندم عظيم بسبب أنني كنت سرحت ابن أخي الشماس يونان إلى بلاد المشرق"<sup>9</sup>.

ثانياً: تحضر كلما أحس بالضيق، خاصة نزاعه مع أحد الإسبانين إذ يقول: " إن في بلادنا، و عوائدنا يحامون عن الإنسان الواقع، ويساعدونه، ونكمل وصايا الله الذي أوصانا قائلاً حب قريبك كنفسك"<sup>10</sup>.

-5-

هم الرحالة جمع المال والذهب، بعبارة أخرى، التركيز على نقل الذهب والفضة، فهذا إشارة إلى أن رجل الدين يهتم بالذهب والفضة أكثر من التبشير، بمعنى أن الدين يخدم الهدف الاستعماري ولا ينظر إليه أنه نهب، وإنما جعل تلك الشعوب في ركب الحضارة.

-6-

هناك إشارات إلى أن الأسبان مستعمرون، وينشرون اللغة الإسبانية بالعنف والإجبار، ويتم حرقهم من خلال المقاطع التالية:

" فأرسلت أفتش عليه فأتوني به سكرانا، فكنت أكلمه ويعمدوهم ويقسموهم على البلاد"<sup>6</sup>.

" فتبعتني أربعة لصوص ليسرقوا خلي، وبغالي فأعمت هذه العذراء بصائرهم فما قدرهم الله على قصدهم"<sup>7</sup>.

لكن هذه البركة مرتبطة بالظلم والعدوان.

-3-

بالنسبة لأسماء الأماكن التي يحيل عليها الرحالة أسماء إسبانية، مما يحيل أن الأسماء الهندية قد غيبت قصداً، والهدف من تغيير الأسماء هو أن تلك الأرض كانت بياباً قبل دخول الأسبان إليها أي بداية الثقافة مع الوجود الإسباني.

هذا دليل على المحو الثقافي واستئصال الهوية الثقافية لتلك المنطقة (الهنود) إذ يقول الرحالة: " وقبل أن تملك السبنيولية هذه البلاد ما كان أحدا يعرف الإله الحقيقي، وكان البعض يعبدون الشمس والقمر والنجوم، وما كان لهم أحرف ولا كانوا يعرفون القراءة والكتابة، لكن لما يريدون أن يقدموا عرض حال إلى ملكهم كانوا يصورون تصاوير في

" فلما يتحققون أمرهم أنهم كذلك يحكم عليهم (ناكرو دين المسيح) ديوان الإيمان (ديوان التفتيش) بالحرق"<sup>14</sup>.

فهو رغم ذلك لا يقدم تجليات الكفر عندهم.

-7-

" وكان في هذه البحيرة جزيرة كبرها فرسخان يسكنها هنود كفرة يعبدون جبلا منصوبا أمامهم يسمى الجبل الأحمر، وما كان يقدر أحد يجوز إليهم لأن عندهم آلة الحرب كرمح، وسهام، ومقالع، وكانوا يخرجون إلى البر السالك ويأسرون السبنيولية، ويأخذون البغال الذكورة ليذبحوها ويأكلوها"<sup>15</sup>.

" وهم دائماً في حرب مع الهنود والكفرة، لأن هؤلاء الهنود من قبل ما كانوا يعلمون أحوال الحرب، لكن بعدما تعاشروا مع السبنيولية تعلموا مثلهم"<sup>16</sup>.

-8-

أما بالنسبة لموقفه من ظاهرة الرق فهو غير واضح، رغم إشارته إلى الظلم الذي يتعرض له السكان الأصليين " حكا لي عن هندي له معدن قوي غني وما اكتشف عليه السبنيولية فكان يروح هو وابنه إلى المعدن سراً في الليل، ويقطعان حجارة الفضة ويأتيان بها إلى داره ويصفيانها بالنار، فلما حكا لي انه أعطى حسنة قداس أربعين ألف قرش أرسلت وراه ودعوته عندي وقلت له: أخبرني لأجل أي سبب لم تكشف هذا المعدن للملك، حتى ينعم عليك وعلى أولادك من فرياض ومراتب الحكم في هذه البلدة ؟ فأجابني قائلاً: رأيت هنوداً أقدم مني كشفوا حالهم للسبنيولية وماتوا أخيراً تحت العذبات، هذا هو السبب، فانا صدقت كلامه من جهة الظلم الذي نظرتهم يعملونه على الهنود"<sup>17</sup>.

-9-

انطلاقاً مما تقدم يمكن أن نستخلص ما يلي:

- الرسالة الدينية هي المحدد لمسار الذات على المستوى الاقتصادي والتأويلي.
- لا حديث عن حضارة الهنود لأن الاعتراف بهذه الحضارة وترجمة الإنجيل دليل على وجود حضارة ورصيد حضاري من تلك الحضارة، لأن هدفهم هو نقل الناس من الدنس إلى الطهارة، بصيغة أخرى، فالدين المسيحي لا يعترف بأديان الهنود الحمر قبل الاكتساح الغربي، لأنه لا يصفها بأنها أديان.
- تماهى مع صورته الدينية أي عدم رؤية أي شيء إلا من المنظور المسيحي وهذا تأكيد على كونه المسيحية. على اعتبار أن هذا الدين لا يعترف ولا يؤمن بالإسلام كدين سماوي، وأن الإسلام توسع في الشرق على حساب المسيحية.
- الرحلة تقوم على فكرة الربط بين الجانبين الديني

والمادي ( البحث عن الذهب).

- الآخر غير موجود في إطار صراع، لا يعترف به، لأن الاعتراف به بحث عن جانب الكمال فيه.
- لا يظهر الآخر إلا في موضع الدونية.
- عدم الاعتراف بثقافته ودينه.
- عدم الاعتراف بالثنائيات، لأن الاعتراف بها اعتراف بالآخر.
- لا وجود إلا صورة الذات، التي لا ترى إلا ذاتها، وهذا اعتراف ضمني بإعدام الآخر وإقباره.

الحواشي

- 1 - إلياس الموصلي، الذهب والعاصفة، رحلة إلياس الموصلي إلى أميركا، تحرير وتقديم نوري الجراح، سلسلة ارتياد الأفاق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، دار السويد للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2001/ ط1.
- 2 - قس كاثوليكي من أصل كلداني، وأنه من عائلة البطرك كانت لهم صلات وثيقة بالفاتيكان و البابوية، فقد كانت له حظوة لدى السلطات الإسبانية والفرنسية، والسلطات الاستعمارية في أمريكا الجنوبية، فضلا عن ديوان التفتيش الكاثوليكي الإسباني، ويتضح ذلك من خلال الحفاوة التي قوبل بها من السلطات في كل مكان زاره أثناء رحلته التي دامت ستا وعشرين سنة (1668-1683).
- 3 - عبد الله إبراهيم، المركزية الإسلامية، صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2001/ ط1، ص 9-10.
- 4 - الكرازة: إقامة القداس، التعميد: المباركة الكنسية، الدينونة: البعث. ص 42
- 5 - إلياس الموصلي، الذهب والعاصفة، مصدر سابق، ص 86.
- 6 - المصدر نفسه، ص 85.
- 7 - نفسه، ص 85.
- 8 - نفسه، ص 71.
- 9 - نفسه، ص 46.
- 10 - نفسه، ص 96.
- 11 - نفسه، ص 87.
- 12 - نفسه، ص 67-68.
- 13 - نفسه، ص 62.
- 14 - نفسه، ص 42.
- 15 - نفسه، ص 84.
- 16 - نفسه، ص 93.
- 17 - نفسه، ص 94.



# عن رباعيات عمر الخيام

إبراهيم عبد الله الخويطر

كاتب ومفكر

يوم يأخذ العلم عني ويذكرني عندكم بما تعلمون فإن كنت كما يقول فأني شيء يأخذ عني وإلا فلم يذكرني بالسوء. ولأن الشاعر حصر نفسه بمئة قليلة فلم تنتشر الرباعيات إلا في العصور المتأخرة لكن ماذا في هذه الرباعيات؟ إنما هي تعبير عن نفس حائرة متسائلة عن الموت والحياة والكون والوجود متفلسفة فلا بد أن نجد فيها شك والحاد وزندقة وإيمان وتصوف والمثل يقول (من تفلسف فقد تزندق) كل هذا ستجده في الرباعيات ويعلل سبب إدمانه الخمر إذ يقول:

لم أشرب الخمر ابتغاء الطرب  
ولا دعيتي قلة في الأدب  
لكن إحساسي نزاعاً إلى  
إطلاق نفسي كان كل السبب  
وعندما تأخذه نشوة الخمر يزداد تعلقه بالمتع الحاضرة فكما يقول:

غد يظهر الغيب واليوم لي  
وكم يخيب الظن في المقبل  
وليست بالغاغل حتى أرى  
جمال دنياي ولا أجتلي  
لا تشغل الببال بماضي الزمان  
ولا بأت العيش قبل الأوان  
واغنم من الحاضر لذاته  
فليس في طبع الليالي الأمان  
وعندما يصحو يعود إلى رشده يعود إلى إيمانه وربما إلى تصوفه و يرى أن ما فعله خارج عن إرادته فهو مكتوب فوق الجبين:

خلقتني يارب من ماء وطن  
وصفتني ما شئت عزا وهون  
فما احتيالي والذي قد جرى  
كتبته يا رب فوق الجبين  
ويقول:  
كان الذي صورني يعلم  
في الغيب ما أجني وما أثم  
فكيف يجزيني على أنني  
أجرمت والجرم قضا مبرم

ويقول:

وهنا نراه قد أحس بضعفه وعجزه أمام هذا الكون العظيم وأسارره وليس له إلا الاستغفار واللجوء إلى رب غفور رحيم ما دام لم يشرك به أحداً وأنه لا يذوق حلاوة العفو إلا من أحس مرارة الذنب وتاب وأناب ورجع إلى ربه خاشعاً ذليلاً:

يا نفس ما هذا الأسى والكدر  
قد وقع الإثم وضاع الحذر  
هل ذاق حلو العفو إلا الذي  
أذنب والله عفا واغتفر  
يا من يحار الفهم في طاعتك  
وتطلب النفس حمى طاعتك  
أسكرني الإثم ولكنني  
صحوحت بالأمال في رحمتك

ويقول:

إن لم أكن أخلصت في طاعتك  
فأنني أطمع في رحمتك  
وإنما يشفع لي أنني قد  
عشت لا أشرك في وحدتك  
الدرع لا تمنع سهم الأجل  
والمال لا يدفعه إن نزل  
وكل ما في عيشنا زائل  
لا شيء يبقى غير طيب العمل  
والله يدري كل ما تضمهر  
وإن خدعت الناس لم تستطع  
خداع من يطوي ومن ينشر

يا رب في فهمك حار البشر  
وقصر العاجز والمقتدر  
تبعث نجواك وتبدو لهم  
وهم بلا سمع يعي أو بصر  
بيني وبين النفس حرب سجال  
وأنت يا رب شديد المحال  
أنتظر العفو ولكنني  
خجلان من علمك سوء الفعال

ويقول:

دنياك ساعات سراع الزوال  
وإنما العقبى خلود المآل  
فهل تبيع الخلد ياغافلاً  
وتشتري دنيا المنى والضلال  
يا من نسبت النار يوم الحساب  
وعفت أن تشترب ماء المتاب  
أخاف إن هبت رياح الردى  
عليك أن يأنف منك التراب

ويقول:

لا توحش النفس بخوف الظنون  
واغنم من الحاضر أمن اليقين  
فقد تساوى في الثرى راحل  
غدا وماضٍ من ألوف السنين  
يا عالم الأسرار علم اليقين  
يا كاشف الضر عن البائسين  
يا قابل الأعذار فتناً إلى  
ظلك فاقبل توبة التائبين

وهذه الأبيات تشير إلى رأيه في الناس والمجتمع:  
نلبس بين الناس ثوب الحياة  
ونحن في قبضة كف القضاء  
وكم سعينا نرتجي مهرباً  
فكان مسعانا جميعاً هباء  
عامل كأهللك الغريب الوفي  
واقطع من الأهل الذي لا يضي  
وعف زلاً ليس فيه الشفا

وأشرب زعاف السم لو تشتهي  
أحسن إلى الأعداء والأصدقاء  
فإنما أنس القلوب الصفاء  
واغفر لأصحابك زلاتهم  
وسامح الأعداء تمح العداء  
عاشر من الناس كبار العقول  
وجانب الجهال أهل الفضول  
وأشرب نقيع السم من عاقل  
واسكب على الأرض دواء الجهول

أما رأيه في الدنيا وزخارفها فهي متاع الغرور فلا تستحق الاهتمام:  
زخارف الدنيا أساس الأثم  
وطالب الدنيا نديم الندم  
فتم خلي الببال من أمرها  
فكل ما فيها شقاء وهم  
تملك الناس الهوى والغرور  
وفتنة الغيد وسكنى القصور  
ولو تزال الحجب بانث لهم  
زخارف الدنيا وعقبى الأمور  
تلك القصور الشاهقات البناء

منازل العز ومجلى السناء  
قد نعب اليوم على رسمها  
يصيح أين المجد أين الثراء  
هون على النفس احتمال الهموم  
واغنم صفا العيش الذي لا يدوم  
لو كانت الدنيا وقت للآثي  
راحوا لما جاءك دور النعيم  
ولاشك أنه اطلع على الشعر العربي فهو عاش في قمة ازدهار الشعر العربي والحضارة العربية وهو يجيدها وقد ألف فيها فتجد تأثره بالمعري:

يخف الوطء ما أظن أديم الأثر  
ض إلا من هذه الأجساد  
الخيام:  
فامش الهوينى أن هذا الثرى  
من أعين ساحرات الإحورار

المتنبى:  
وكن على حذر للناس تكتمه  
ولا يعفرك ثغر مبتسم  
إذا رأيت نيوب الليث بارزة  
فلا تظنن أن الليث يبتسم  
الخيام:  
إن الذي تأنس فيه الوفاء  
لا يحفظ الود وعهد الإخاء  
فعاشر الناس على ريبة  
منهم ولا تكثر من الأصدقاء

الخيام:  
قلبي في صدري أسير سجين  
تخلجه عشرة ماء وطن  
المعري:  
أراني في الثلاثة من سجوني  
فلا تسأل عن الخبر النبيث  
لفقدي ناظري ولزوم بيتي  
وكون النفس في الجسد الخبيث  
الخيام:  
إذا سقاك الدهر كأس العذاب  
فلا تبين للناس وقع المصاب  
المتنبى:  
ولا تشك إلى خلق فتشتمته  
شكوى الجريح إلى الغريان والرخم

المتنبى:  
ولا تشك إلى خلق فتشتمته  
شكوى الجريح إلى الغريان والرخم

شكوى الجريح إلى الغريان والرخم



صورة تخيلية للخيام

الرباعيات مقطوعة شعرية من أربعة أبيات تدور حول موضوع معين، وتكون فكرة تامة.

ينظر دارسو الخيام الخبراء بحياته وتأليفاته، إلى الأشعار المنسوبة له من زاويتين: الأولى: وهي نظرة من خارج رباعياته تعتمد المستندات والمخطوطات.. والثانية: نظرة من داخل رباعياته تستند إلى فكره وفلسفته وأسلوبه في الحياة.

تتوزع الرباعيات المنسوبة للخيام إلى ثلاثة أنواع على الأقل. يحذف النقاد اليوم قسمين أو نوعين منها ويستثنى قسماً على النحو التالي:

كان للخيام منزلة اجتماعية وثقافية مرموقة في عصره. فالشاعر الذي يعيش حياة مرفهة بعيدة عن الفاقة، لا يمكن أن يعاني في أشعاره من الفقر والحرمان المادي وأن يذم، أو يلعن القدر الذي أذله بالجوع والعوز والثياب الرثة. ويكتب الخاقاني وهو من كبار شعراء القرن السادس في منشأته عن لسان الخيام أنه كان يتقاضى سنوياً من الديوان العالي مبلغاً قدره عشرة آلاف دينار. وطبعاً يعتبر هذا المبلغ خيالياً لذلك العصر والزمان.

ويعتبر النقاد الرباعيات صحيحة ويتسنى لها أن تكون وليدة فكر الخيام. هذه الرباعيات لا يتجاوز عددها عن مائتي رباعية.

قام الكثير بترجمة رباعيات الخيام هم من مشاهير الأدب العربي المعاصر. ففي مصر ترجمه له أحمد زكي أبو شادي، إبراهيم المازني، علي محمود طه، محمد السباعي، عباس العقاد، غنيمي هلال، أحمد رامي.

ويبقى أن نقول إن رباعيات الخيام لاقت رواجاً كبيراً في العالم العربي وخاصة بعد أن ترجمها أحمد رامي وفتتها سيدة الغناء العربي الراحلة أم كلثوم بفنائها، مما أمن انتشارها لدى شريحة أكبر من القراء والسماعين في العالم العربي، ولا أظن أن من الحضور من لم يسمع بهذه الرباعية:

سمعت صوتاً هاتقاً في السحر  
نادى من الحان غضاة البشر  
هبوا املؤوا كأس الطلا قبل أن  
تفعم كأس العمر كف القدر